

خيال بدوي مصنوع

أو

مع الطغرائي في وصف هاجرة وورد

بقلم

الأستاذ السباعي بيومي

مدرس الأدب بدار العلوم

لم ينس شعراء المدن وقد بعدوا عن البادية وهجيرها ونسوا ما كان من
رحلة رواحلها وورود مياهها ، بما أصبحوا فيه من نعيم الحضرة وخفض عيشه
والمتعة بآيات طبيعته وألوان حضارته ؛ أقول لم ينس هؤلاء أن تكون لهم
جولات بعيدة المدى فيما كان لأسلافهم شعراء البدو من تناول أوصاف البداوة
الصرفة . في أشعار يحكمون فيها الصنعة ، ويجيدون المحاكاة ، حتى لكأنهم في
البادية نشئوا ، وعلى رمالها درجوا ، وبسمومها أجرها فحوا ، فنال منهم الصدى
منالاً ، وأوقد في صدورهم حر الظمأ نارا ، فكان لظفرهم بالماء يقعون عليه في
غدير أو بئر - فرح أيما فرح ، وابتهاج ليس من فرقه ابتهاج ، فهو الظفر بالبقيا
على حياة كادت تودي . وروح ما كان أو شكها أن تزهق .

وللطغرائي الأستاذ المنشئ ، والشاعر المتصرف ، البعيد في سنيه عن

العهد الجاهلي ، فهو من شعراء العصر العباسي الرابع ، والبعيد في مسترطنه عن مضارب البداوة وخيام الأعراب ، فهو من أهل بغداد - جولة من هذه الجولات في وصف هاجرة وورد ، افتح بها قصيدة من مدائحه لنظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي ووزير ابنه ملكشاه من بعده ، أحسن فيها الوصف وأجاد التصوير ، فأبدع بنسج خياله مالم تبدعه ريشة مصور صناع ، ثم خلاص منها إلى ما أراد من مدح خلوصا نجيا ماهرا ، في حسن سبك وبراعة انتقال . تصور نفسه وصحبا من صحابه ، على أقتاب الأبل وأكوار الرواحل ، يقطعون هاجرة سجراء حامية ، قد اشتد لهيبتها حتى أكل الظل وسود الحصى وأصاب الجنادب - وهي في الحر ترح وبه تنشط وله تنشد - بالرمض يحرقها وينكي بها ، بل إنها أصابت بجرها المنعكس ، الشمس وهي منبع الحرارة ومصدر الإحراق ؛ بما أروعها وآذاها ، فعادت تفزع إلى خيوطها تبعث بها وتدليها ، إلى مافي المذائب والجداول من نطاف المياه وصافياتها ، لتمتاع من ربا هذه وتلك ، ما نرتد به إلى الشمس معجلة لتدفع حر الهاجرة عنها ، وتنفس عن خناقها ماضيق عليه من لأوائها .

وصف تلك الهاجرة بما وصف ثم عاد يقول ، ولقد كان شأننا مع تلك الهاجرة أن لطمنا بها وجه النهار لظمة سودته ، ونالت من فوقه ناصيته ، غير هيا بين سيرا ولا خائفين حرا ، وكأن النهار أراد أن ينتقم لتلك اللظمة منا فأفرعنا وراعنا بالهجوم بنا على ليل منقب الوجه بالسواد ، حالك الظلمة في مغربه ، وسخره شاحب المنظر كريبه ، ولكننا اقتحمنا هذا الليل بجرأة المقدام البطل ، في ظلمته الكثيفة ، حتى على مرتفعات الآكام في عليائها ، وفي منكبيه القريب أولها من ذهب الأصيل ، وثانيهما من لآلء الفجر .

وما زلنا مقتحمين ذلك بعد سير هاجرة في سرى ليل . حتى وردنا سحيرا حيث علقت أيدي الكواكب بالغرب تتعلق به للغروب في أدبار الليل ، وحين

جذبت جذبة من الشرق رداء الظلمة عن الصبح فتعري منسكبه ، وعنان ستائر ما
فتزحزحت عن بعض منافذ الضوء غياهبه .

يقول ومازلنا كذلك حتى وردنا فيما صورنا من وقت ، غديرا مجلو الصفحة
مشرق الديباجة كأنه مرءاة الغريبة التي لاناصح لها في تفقد زينتها سواها ،
فهى دائما كقرص الشمس نصاعة وإشراقا ، لاتزال أنفاس الرياح الغرائب
تلتقى بجانيه ، تستمد منه روحا ينفس عنها مالقيت من القيظ ، لترتد نسيما
مروحا بعد أن كانت سموما لا فحا ، ثم هو مستكن حيث يقع فى بطن هضبة
عالية تتصيد له السحب الماطرة ، تمده بمائها وتسكب عليه من غيثها ، فخر ذراها
الشاحنة لاتزال ترشف ريق المزن وظلم السحب ، وكلما قبلت من الحيا أفلاذه
ألقت بها إلى هذا الغدير ليكنسها فى أرجائه الطامية بكثرة مائه ، ويصبها على
أحجاره الخضراء لاستدامة امتلائه ، فهو لذلك جم الماء غزيره تقابل منه نبال
المطر إذا تساقطت على صفحته ، قوة رد وشدة احتمال فلا تؤثر فيه الاهونا
ولا يهتز إلا اهتزازا خفيفا سهلا ، يشكل سطحه بشكل الدرع القوية النسيج
حتى لكأن هذا السطح مدارج نمال على أديم رمال ، أو هو شجاع بطل
ارتدى درعه ليتقى بها تلك النبال .

ثم عاد إلى رواحه التي رحل عليها يقول ، إنها كانت عيسا أى إبلا بيضاء
فرقنا ببياضها الظلماء ، وكانت فى شدة نحو لها وقوة حصافتها وأيدها كأطراف
القرون أو أصابع الأمشاط ، وأنها حين أبصرت الغدير وقد أخذ منها الظمأ
مأخذه ، أقبلت عليه فى حر العطش تجتذب ماءه الصافى دون أن تمس مشافرها
سطح الغدير فاذا هو بينها وبين صفحة الماء سيوف بيضاء لامعة ، وإذا هى كأنها
تغمد بمشافرها تلك القواضب اللامعة فى أعناقها ، على أن فيها طائفة رأت فى
سنا الفجر وقد تلاءم ببياضه وزرقته ، مورد ماء فى زرقته وجمامه ، فارتابت
فيه عيونها ، فقمحت عن لجة الغدير الحق وأسرعت مولية طامحة إلى

منبعث الفجر تظنه ماء آخر ترده وتعب منه ، وما زالت في هذا الشك المريب الذى سحر عيونها فجعلها تظن الفجر مشربا وما هو من المشارب فى شئ ، حتى أخذت غزالة السماء تمد بقرنها ليطلع وتهيب بشعاعها أن ينفذ فاذا بالقرن يبدو فى الوجود ناجما ظاهرا وإذا بالشعاع ينفذ وضاء ماتعا كما يبدو وجه نظام الملك بين مواكبه مشرقا مسفرا فتزلى الظلمة وينقطع الشك ، ومن هنا يبدأ الطغرائى فى وصف ممدوحه بعد هذا التخلص الممتع الجميل بما لا شأن لنا به فيما أردنا من موضوع .

وبعد

فهذه مقطعة الطغرائى التى حاولنا فيما أثبتنا آتينا تصوير موضوعها ورسم خيالها ، تتراءى كلوحة لا تبلغ مبلغها كما قلنا ريشة مصور صناع لهذا المنظر البدوى الجميل ، قال : -

وهاجرة سَجَرَاءَ تَأْكُلُ ظَاهِهَا مُلَوَّحَةَ الْمَعْزَاءِ رَمَضَى الْجَنَادِبِ (١)
ترى الشمسَ فيها وهى تُرْسِلُ خَيْطَهَا

لَتَمْتَّاحِ رِيًّا مِنْ نِطَافِ الْمَذَانِبِ (٢)

سَفَعْنَا بِهَا وَجْهَ النَّهَارِ فِرَاعِنَا بِنُقْبَةِ مُسَوِّدِ الْمُقَادِمِ شَاحِبِ (٣)

فَلَمَّا اعْتَسَفْنَا ظِلًّا أَخْضَرَ غَاسِقِ عَلَى قَمْعِ الْآكَامِ جَوْنِ الْمَنَاكِبِ (٤)

وَرَدَّنَا سُحِيرًا بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ

وَقَدْ عَلَقَتْ بِالْغَرْبِ أَيْدَى الْكُؤَاكِبِ (٥)

(١) السجراء الحامية ، وملوحة المعزاء مسودة الأرض ، ورمضى الجنادب محروقتها .

(٢) تمتاح تستقى ، ونطاف المذانب المياه الصافية للجداول .

(٣) سفعنا لطمنا وسودنا ، والنقبة اللون الأسود والمقاديم الأطراف والشاحب المتغير .

(٤) اعتسفنا افتحمتا ، وقمع الآكام مرتفعات الهضاب .

(٥) كناية عن قرب انتهاء الليل .

- على حين غرَّتْ مَنِكَبَ الصَّبْحِ جَذْبَهُ
 من الشرق وأَسْتَرْخَى عَنَانَ الْغِيَاهِبِ (١)
 غديراً كَهَرْمَاءِ الْغَرِيبَةِ تَلْتَقِي
 بِصَوْرِ حَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ الْغَرَائِبِ (٢)
 بِمُنْعَرَجٍ مِنْ رَيْدِ عَيْطَاءٍ لَمْ تَزَلْ وَقَائِعُهَا يَرُشِفْنَ ظُلُمَ السَّحَابِ (٣)
 تُقْبِلُ أَفْلَاحَ الْحَيَا وَتُكْثِنُهَا
 بِطَاطِمَةِ الْأَرَجَاءِ مُخْضِرِ النَّصَائِبِ (٤)
 إِذَا مَا نَبَالَ الْقَطْرِ تَاحَتْ لَهُ أَنْتَقَى
 بِمَوْضُوعِهِ حَصْدَاءَ مَنْ كُلُّ جَانِبٍ (٥)
 بِوَيْسِ كَأَطْرَافِ الْمَدَارِى نَوَاحِلِ
 فَرَقْنَا بِهَا الظُّلُمَاءَ وَوَحَفِ الذَّوَائِبِ (٦)
 نَشَجْنُ بِهِ عَذْبًا مُنْقَاخًا كَأَنَّمَا
 مَشَافِرُهَا يَغْمَدُنْ بِيضَ الْقَوَارِصِ (٧)
 رَأَيْنَ جِهَامَ الْمَاءِ زُرْقًا وَمِثْلَهَا
 سَنَا الْفَجْرِ فَارْتَابَتْ عُيُونُ الرَّاكِبِ (٨)
 فَكُنْ قَامِصٍ عَنْ لُجَّةِ الْمَاءِ طَامِصٍ
 إِلَى الْفَجْرِ ظَنَّ الْفَجْرَ بَعْضَ الْمَشَارِبِ (٩)
 إِلَى أَنْ بَدَأَ قَرْنُ الْغَزَا لَمَّا تَعَا
 كَوَجِّهِ نِظَامُ الْمُلْكِ بَيْنَ الْمَوَاكِبِ (١٠)

السباعي بيومي

(١) الغياهب الظلمات وعنانها زمامها . (٢) الصوحان الجانبان . (٣) الريد الجرف والعيطاء الهضبة
 ووقائعها حفرات مرتفعاتها . (٤) أفلاذ الحيا قطع المطر ، كناية عن غزارة الماء واستدامته (٥) الموضوعة
 الدرع قوية النسيج . (٦) العيس الإبل البيض ، والمدارى أطراف القرون والأشواط ووحف الذوائب
 غزبتها . (٧) نشجن به شرين منه . (٨) جهام الماء جمع جم وهو الكثير الغزير . (٩) القامح المتراجع
 والطامخ الذاهب . (١٠) يقال تمتعت الشمس إذا بلغ ضوءها أوج قوته .